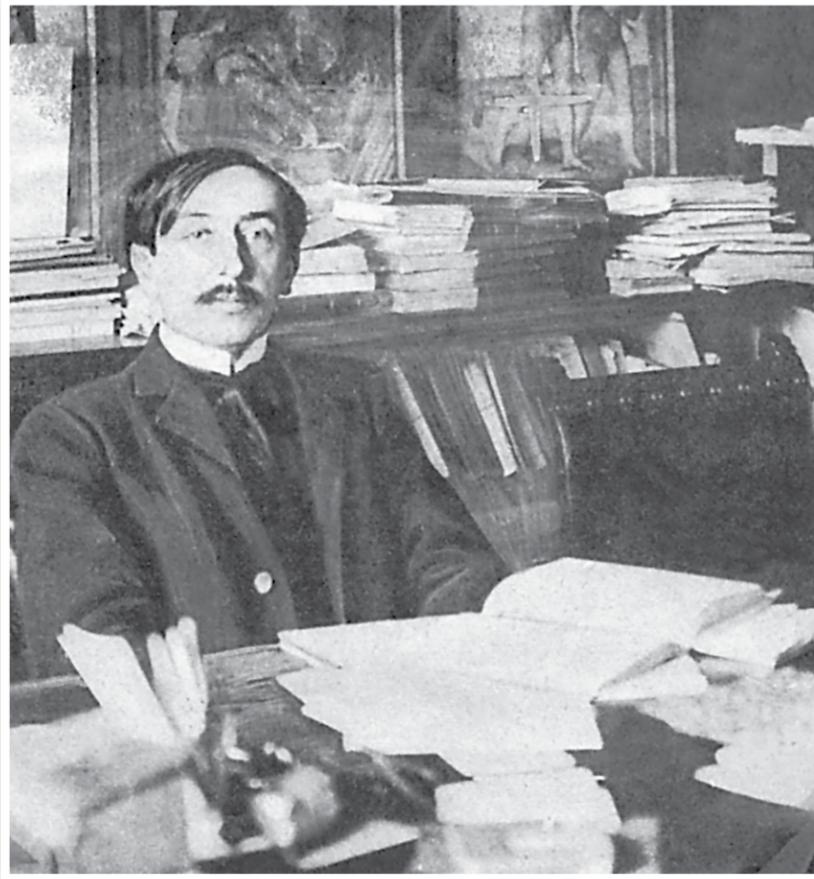


صفحات من لبنان

بقلم العميد الركن المتقاعد ادونيس نعمة

موريس باريس زار لبنان
فتارك نقشاً في تاريخ الرحلة

الكاتب الفرنسي موريس باريس.

تبقى ناقصة اذا اهمت ان اظهر في قلب الجبل صاحب الغبطة البطيريك حويك عميد امته". ثم يصف القصر البطيريري "فريسة زرقاء السماء واريح البحر والجبل، يزدحم فيه الاحبار باثوابهم الزاهية، ولحاهم الطويلة، وبينهم صاحب الغبطة البطيريك الجليل، والحق يقال ان هؤلاء الاحبار يتسمون بكثير من الاناقة الروحية". بعد الغداء قام يطوف في دهاليز القصر الطويلة متفرجا، متعجبا، الى ان انتهى في تجواله الى الديوان حيث جلس البطيريك على "الدوشك" الاحمر وحوله حاشية من الاحبار باثوابهم القرمزية وصلبانهم المتوهجة، فتمنى باريس لو ان الرسام "دولاكروا" كان هناك ليخلد بريشته ذلك المشهد، وجرت الاحاديث بينه وبين البطيريك في جو من المحبة والتفاهم.

كانت بكركي لم تزل تذكر زيارة الاميرال قائد الاسطول الفرنسي في البحر المتوسط في تشرين الثاني 1913، وكان مؤلفا من ست مدرعات ونسافات وطرادات عدة. حدث انه لما رد البطيريك الزيارة للاسطول الفرنسي الراسي في مياه جونية، وفيما كان يحاول الصعود الى الدارعة، سقط خاتمته الراعي في البحر. فهزت الاريحية البحارة الفرنسيين، فاجتمعوا بعد مدة واكتتبوا وابتاعوا خاتما غيره انزل فيه نائب الاميرال لأكاز حبرا ثمينا كانت تحتفظ به اسرته من اكثر من مئتي سنة، وحفر عليه صليبا ومرساة وتاريخ زيارة الاسطول، ووضع هذا الخاتم - حسب قول الرواة - في فم سمكة كبيرة اصطادها البحارة، ورافق الاميرال هديته بكتاب لطيف، فكأنني بالبحارة كانوا يقولون: "ان السمكة التي تلقت الخاتم قد اصطيدت لتعيده الى صاحبه الكبير".

قبل ان يغادر باريس الصرح البطيريري اهدى اليه البطيريك رسمه، وهو مثبت في

قلعة ذات يدهم حين مجيئهم الى هذه البلاد، اصبحت مؤسساتهم محجة الشرق اجمع، وزار بعد ذلك كل مؤسسات البعثات الفرنسية. روى الاب كاتان، رئيس كلية القديس يوسف آنذاك، انه لما جاء موريس باريس الى بيروت زائرا، صادف قدومه في اسبوع احتفالات دينية، فأخذه الاب كاتان الى كاتدرائية القديس جرجس المارونية، وحدثه عن الموازنة وعن عظيم ايمانهم وشدة تعلقهم بالكرسي الرسولي، وانهم عمود الكتلثة في الشرق. دخل باريس الى الكنيسة، فوجد الكثيرين فيها مشغولين بالاحاديث، يضحكون ويتسلون

على غير ما يرى في معظم كنائس فرنسا. فلما خرجا من الكنيسة قال باريس للاب كاتان: "أهؤلاء هم الموازنة عمود الكتلثة في الشرق؟"، فضحك الاب كاتان واجابه: "لا تعجب يا حضرة النائب، فين الله والموازنة تجري الامور برفع الكلفة" (كتاب "في سبيل الاستقلال" ليوسف السودا).

من اهم الزيارات التي قام بها باريس في لبنان، كانت زيارته للبطيريك الماروني الياس الحويك. قال باريس في مستهل الفصل الذي عقده حولها: "ان هذه الفكرة التي احاول ان اعطيها عن لبنان

الشرق منذ حادثته، وقد رسّخ هذا الميل فيه لزيارة موطن الانبياء، ومهد الاديان، ومهبط الوحي والحكمة ما كان يقرأه من مؤلفات دو لاروك، وفولني، وجيرار دو نرفال، وشاتوبريان، ولامارتين، ورينان، ولورتيت وغيرهم ممن زاروا الشرق واخذوا به. شمر عن ساعد الجد وترك فرنسا في ايار 1914 قاصدا البلاد السورية، حيث قام بجولات اكسبته معرفة تامة باحوال بلادنا وروسوخ قدمها في علمي التاريخ والحضارة. وكتب عن رحلته كتابا في مجلدين عنوانه "استقصاء في بلدان الشرق" اودعه معلوماته، ومشاهداته، وانطباعاته، وذكرياته وما وقع له فيها من الحوادث والطرائف والنكات.

جدير بالذكر ان موريس باريس كان احد اعضاء المجمع العلمي الفرنسي، وهو اديب ومنتج له أكثر من 35 مؤلفا اكثرها معروض في المكتبات، برغم قدمها وانصراف افكار الفرنسيين العصرية الى غيرها من المؤلفات. وقد اخبرنا ولده فيليب، الذي جمعنا به حفلة لبنانية - فرنسية في البيت اللبناني في باريس، ان لوالده غير ذلك من الكتابات والمخطوطات.

يعنينا من امر هذه المصنفات الكتاب ذو العنوان "استقصاء في بلدان الشرق"، ففيه صفحات مشرقة تروق اللبناني مطالعتها على رغم مرور عشرات السنين على تسطيرها.

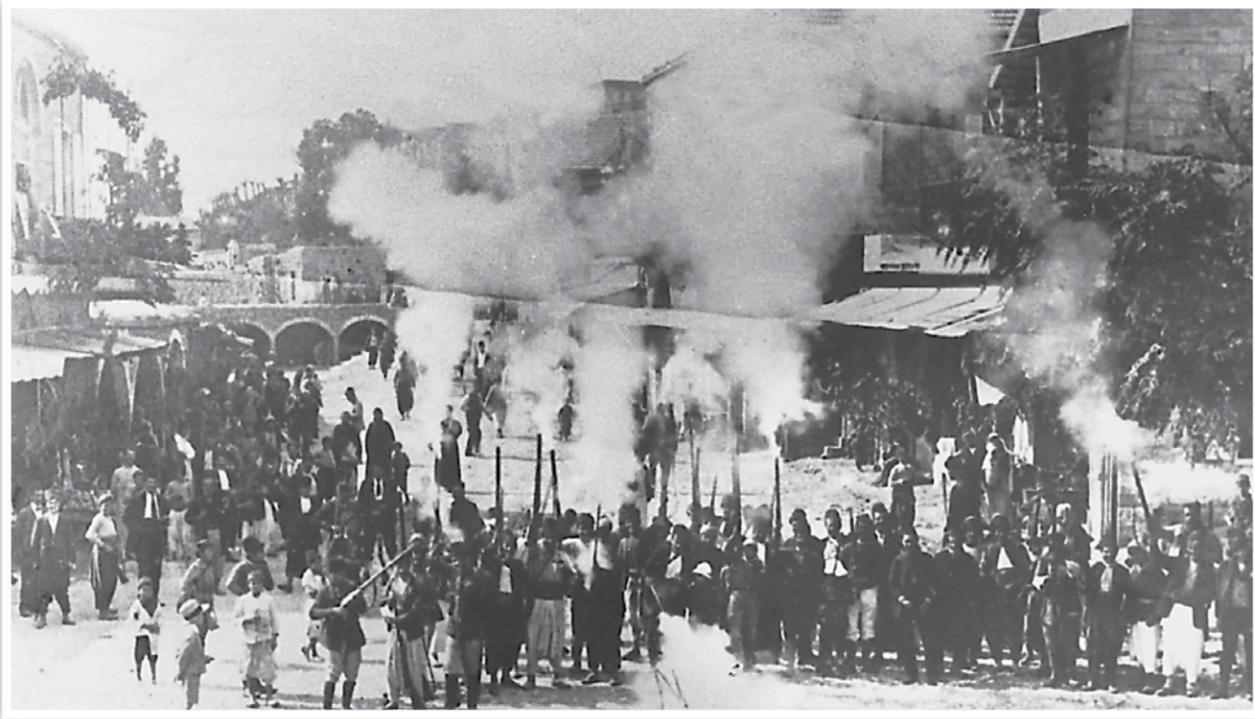
لهذه الزيارة منطويات سياسية الى جانب منطوياتها السياحية. ما نعرفه عنها انه بعد اعتداء ايطاليا على طرابلس الغرب

الشرق منذ حادثته، وقد رسّخ هذا الميل فيه لزيارة موطن الانبياء، ومهد الاديان، ومهبط الوحي والحكمة ما كان يقرأه من مؤلفات دو لاروك، وفولني، وجيرار دو نرفال، وشاتوبريان، ولامارتين، ورينان، ولورتيت وغيرهم ممن زاروا الشرق واخذوا به. شمر عن ساعد الجد وترك فرنسا في ايار 1914 قاصدا البلاد السورية، حيث قام بجولات اكسبته معرفة تامة باحوال بلادنا وروسوخ قدمها في علمي التاريخ والحضارة. وكتب عن رحلته كتابا في مجلدين عنوانه "استقصاء في بلدان الشرق" اودعه معلوماته، ومشاهداته، وانطباعاته، وذكرياته وما وقع له فيها من الحوادث والطرائف والنكات.

جدير بالذكر ان موريس باريس كان احد اعضاء المجمع العلمي الفرنسي، وهو اديب ومنتج له أكثر من 35 مؤلفا اكثرها معروض في المكتبات، برغم قدمها وانصراف افكار الفرنسيين العصرية الى غيرها من المؤلفات. وقد اخبرنا ولده فيليب، الذي جمعنا به حفلة لبنانية - فرنسية في البيت اللبناني في باريس، ان لوالده غير ذلك من الكتابات والمخطوطات.

يعنينا من امر هذه المصنفات الكتاب ذو العنوان "استقصاء في بلدان الشرق"، ففيه صفحات مشرقة تروق اللبناني مطالعتها على رغم مرور عشرات السنين على تسطيرها.

لهذه الزيارة منطويات سياسية الى جانب منطوياتها السياحية. ما نعرفه عنها انه بعد اعتداء ايطاليا على طرابلس الغرب



استقبال موريس باريس والمفوض السامي جورج بيكو في دير القمر في 20 ايار.

الدهر المفرحة". وزار باريس بعد ذلك بعلبك ودمشق وحلب وبلاد العلويين، وزيارته هذه هي موضوع المجلد الثاني من كتابه.

وعاد الى فرنسا يحمل في صدره اطيب الذكرى عن لبنان، ومات في 4 كانون الاول عام 1923 بعد ان رأى علم بلاده يخفق فوق الالزاس واللورين اللذين كثيرا ما جاهد في سبيل ارجاعهما الى فرنسا وابقاء صيغتهما الفرنسية رغم ما كانت تبذله المانيا في ازلتها.

وكما ان لبنان اراد ان يخلد ذكرى مرور الشاعر لامارتين فيه بنقش اسمه على شجرة قديمة من اشجار الارز (1832)، كذلك فعل لذكرى زيارة باريس الى ربوعه، فقد اطلقت بلدية بيروت اسمه على شارع مهم من شوارع العاصمة دلالة على ان لبنان لا ينسى اصدقاءه ومحبيه.

خطب بالفرنسية والعربية أثرت تأثيرا عظيما في القلوب لان موضوعاتها كانت لبنانية محضا.

واقام المجلس البلدي مأدبة فاخرة في غاية الترتيب والنظام جمعت من المآكل اشكالا والوانا. بعد العشاء صعد القنصل والقمر في ذلك الوقت شعلة من النار، مما يدل على ان اهاليها اشتركوا جميعهم في هذا الفرح العمومي. وظلت الاسهم النارية ترشق في الجو خمسين خمسين، ومئة مئة، حتى كان منظرها مدهشا جدا. ولما كان منتصف الليل احب القنصل ان يسمع الغناء العربي، فأحضر اثنان ضربا على العود ضربا حرك اوتار القلوب، وانشده بعض اغان عربية لقيت فريد استحسانه. وهكذا أنقضت هذه السهرة الجميلة التي تحسبها دير القمر من ليالي

من حضرة نائبا الكريم داود بك عمون واعضاء مجلسنا البلدي وبعض الوجوه والاعيان، ادى اعضاؤه واجب التحية والسلام، ثم واصلوا السير الى بيت الدين مع الزائرين الكريمن بعد زيارة ضريح الجنود الفرنسيين. سارت السيارة رويدا رويدا، ووراءها سلسلة من المركبات، الى ان اوشك الموكب ان يدخل البلدة (دير القمر)، فاذا براهبات القديس يوسف وطالباتهن صفوف منتظمة وبيد كل طالبة علم فرنسي، وبعدهن حضرات الاخوة المرهميين وطلبتهم وعلى صدر كل طالب العلم الفرنسي.

ودخل الموكب البلدة، فعقد البارود قبابا فوق سماء دير القمر حتى لم يعد الواحد يرى الآخر. ولما دخل الزائران الكريمان قاعة البلدية واستراحا قليلا وقف كثيرون من الخطباء، والقوا جملة

من الشبان بالطلقات النارية والتهافتات الحماسية، ما ادهشه واثار اعجابه. وحل باريس في تلك الليلة ضيفا على الدكتور جورج الطحيني، واقامت دير القمر اكراما لضيفها (باريس والقنصل بيكو) معالم الزينة والافراح، وتناولوا الطعام مع مرافقيهما على مأدبة سخية. ثم جلس الجميع على سطح الدار، فاشرفوا على المدينة المهللة الجذلي. وكانت الانوار تتفجر وتراقص، والبارود يلعلع، والنساء يزغردن والموسيقى تعزف، فشعر الضيوف بهناء لا يوصف، وغمرتهم غبطة تسربت الى اعماق نفوسهم حتى ملكت عليهم مذاهبهم. قال باريس: "كنت منهوك القوى، خائر العزم، فغمضت عيني وانا انصت الى جلبة العيد، فخيّل لي انني في حلم بعيد".

ونام قواص القنصل بيكو في تلك الليلة بأذن واحدة، فقد اطارت رصاصة طائشة لاحد المتحمسين اذنه الاخرى في اواخر الليل، وقد اخذت لهذا الاحتفال رسوم عدة نحفظ نحن ببعضها.

كانت هذه الاحتفالات والاستقبالات تجري واعين الاتراك ترقب سرا تفاصيلها. والاشخاص الذين يخططون لها ويقومون بتحقيقها. وقد جمع موظفوها هذه الاخبار لمحاسبة اصحابها حين تدق الساعة، وقد دقت الساعة بالفعل في سنوات الحرب العالمية الاولى على النحو المعروف.

وقالت جريدة "دير القمر" تصف هذا الاستقبال: "لا تسلم، ايها القاريء الكريم، عن مهرجان هذا الاحتفال الكبير، فستقرأ ما يدهشك ويجعلك تقول ان الديرين اذا عقدوا عزيمتهم على امر ابدعوا واحسنوا. فعندما اطل سعادة القنصل والمسيو باريس من فوق محلة المنتزه المعروف بـ"صفصافة كفرنبرخ"، حيث كان في لقائهما وفد من وطنيين مؤلف

اخواني ذلك ايضا، فدعوت باريس وبيكو وصفوة كبيرة من رجالنا الى طعام الغداء على ضفاف نهر الصفا في الشوف، حيث جرت للضيفين تظاهرة بالسلاح قام بها على دوي البارود عشرة آلاف لبناني ونيف. وفي ذلك المهرجان السياسي الحافل، الذي لم يحضره متصرف لبنان او هانس باشا لاسباب لا تخفى على القاريء، نهض القنصل الفرنسي وصرح بأن فرنسا تنظر الى الشعب اللبناني نظرا الى شعب يجمع اطرافه للمطالبة بامتياز اوسع، وحدود اوسع. وكذلك فعل موريس باريس، فقد خطب في الجماهير قائلا انه سيحمل الى المجلس الفرنسي اماني اللبنانيين في التوسع والمحافظة على امتيازهم وصون كياناتهم المستقل في الشرق".

بعدها غادر افراد الموكب نهر الصفا واشرفوا على الباروك، التفت باريس الى رشيد نخله وقال له: "اما الآن فقد جزنا حقا عتبة ميسترال". ميسترال في فرنسا هو، كما رشيد نخله في لبنان، إمام الزجالين، سارت فيها قصائده مسير قصائد هيغو. لما وصلوا الى الباروك اقتحمت السيارة فتاة ذات جمال ملائكي والقت قصيدة بصوت عنيف رنان. وقد اعجب بها باريس كثيرا ومال الى مضيفه رشيد بك يسأله عنها فاجابه: "هي جديرة بقصائدك، وقد تغنيت بها انا ايضا"، وكانت تلك الفتاة الحسنة هي التي اصيحت في ما بعد حبوبة حداد (والدة الشهيد فؤاد حداد المعروف في عالم الادب وراوي الحكايات للاولاد الصغار من وراء مذبح الاذاعة اللبنانية).

خلاصة من كتاب "استقضاء في بلدان الشرق":

وانتهى الموكب الى دير القمر قبيل المساء، فاذا بالحماسة بالغة في اهلها اشدها. فقصد باريس حالا المدارس، ولما توجه الى مدرسة الاخوة المرهميين استقبله عدد كبير

كتابه، وطلب منه رسم الرئيس بوانكاره. وقد دعا فنصل فرنسا آنذاك، المسيو جورج بيكو، الكاتب موريس باريس الى جولة في الجبل، فسار الموكب نحو الشوف في سيارة، وكانت من المركبات النادرة في تلك الايام. ما ان بدت لهم عالية حتى اخذوا بروعة تلك المدرجات، ويعنى بها الجلول المتصاعدة من اعماق الوادي حتى الاعالي المجلية باشجار الصنوبر والخروب والزيتون والشربين، حيث كانت تلوح لهم بينها البيوت المتناثرة بالوانها المختلفة من احمر وابيض واصفر وادكن. وما كادوا يصلون الى عالية حتى استقبلهم هزيم البارود، وزغردة النساء واهازيج الرجال، واجتمعت عليهم البلدة بشيها وشبانها. وتابع الموكب طريقه ببطء، اذ كان عليه ان يتوقف في كل قرية ريثما تنتهي العراضات والخطب.

قال باريس: "وكانت الساعة الثانية بعد الظهر حين اجتاز الموكب وادي الصفا حيث نحرت عند مرورنا وعلى شرفنا عشرة رؤوس من الغنم. ووصلنا بعد قليل الى مكان ما، فاذا بطاولات عديدة من الطراز الاوروبي ممتدة في ظلال الاشجار بين المياه. وكان المدعوون الى المائدة يتجاوزون المئتين، وقد حلوا ضيوفا على الشاعر العربي رشيد بك نخله، وهو شاعر رقيق جدا كما قيل لي. وكان هناك ايضا سيادة المطران بطرس شبلي رئيس اساقفة بيروت، والمطران بصوص رئيس اساقفة صيدا. ولم يزل يدوي في اذني خريير المياه ممزوجا بزغردة النساء، وهدير الشلال والخطب الرنانة".

وقال رشيد نخله في كتابه "المنفى" في صدد هذه الزيارة: "وصادف ان صديقي الشاعر الطائر الصيت موريس باريس، نائب باريس في البرلمان الفرنسي، كان قد نزل ضيفا على جورج بيكو، قنصل فرنسا في بيروت، فرأيت ان اغتتم السانحة، ورأى